



استعان بهم حافظ الأسد.. وبشار يستكمل مسيرة أبيه ويقتل 30 ألف مع استمرار الحراك الثوري السوري ترتفع وتيرة العنف من النظام وتتعدد آلياته، فيما تزداد معدلات القسوة والوحشية، ليستمر السوريون في دفع أثمان باهظة لمعارضتهم نظام بشار الأسد الذي يمثل امتداداً لسيطرة العلوين على الحكم منذ انقلاب نوفمبر 1970 وصعود حافظ الأسد إلى سدة الحكم.

ورغم تعدد الأساليب الوحشية التي يستخدمها النظام السوري لقمع الثورة الشعبية، يصل عدد الضحايا منذ بدء الأحداث في 15 مارس 2011 إلى أكثر من 30 ألف شخص، إلا أن دور ما يطلق عليهم اسم "الشبيحة" يبقى الأبرز في واجهة الأحداث، نظراً لما يثيرونه من رعب أثناء تنفيذ أعمالهم الإجرامية، وهو ما جعل منهم ذاكرة مفعمة بالخوف لكل السوريين.

وفي الوقت الذي تكسب الثورة يومياً أرضاً جديدة، تكسب تنظيمات الشبيحة أعوناً جدد بانضمام عناصر من المجرمين لا هم لهم إلا المال، مع إثبات الولاء للنظام والطائفة العلوية، وذلك رغم عدم الانتماء لها في كثير من الأحيان.

وإذا كان الشبيحة في ظل حكم الأسد الأب ينتمون إلى الطائفة العلوية فقط، إلا أن قاعدهم توسيعه عندما توسيع الثورة، حيث استعان النظام من خلال خلية الأزمة التي يرأسها بشار الأسد بمجموعة من الأشخاص أطلق عليهم صفة "العمال" وهو من كل الفئات، وقام بتسلیحهم لقمع المظاهرات، وكان يعطى كل واحد منهم مبلغ 10 آلاف ليرة سورية يومياً (حوالي 200 دولار)، ويزداد المبلغ في حال تنفيذ أعمال القتل المصحوبة بالعنف المفرط.

ومن هنا أطلق الشعب السوري صفة "الشبيحة" على هؤلاء، وهي كلمة تعادل "البلطجية" في مصر، و"البلاطجة" في اليمن، وأصحاب القبعات الصفراء أو اللجان الثورية" في ليبيا.

والشبيح النمطي شخص متدني التعليم، ينحدر من بيئة اجتماعية مهمشة وفقيرة، وهو ضخم الجثة عموماً، مفتول العضلات، متين البنيان، حليق الرأس، طويل اللحية، ويرتدى لباساً أسود في الغالب. ولكن مع اتساع نطاق ظاهرة الشبيحة وتعتمد التشبيح، لم يعد هناك شكل قياسي للشخص الذي يقوم بهذا النوع من الإجرام الذي بات مرتبطاً بقمع الثورة بأساس.. إنه اليوم عضلات مزودة بسلاح ناري أو هراوة كهربائية، كما أصبحت صفة التشبيح تعنى القتل باستخدام أشد الأساليب وحشية وقسوة.

أصل التشبيح:

ويقول الأديب ممدوح عدوان – الكاتب السوري الوحيد الذي تكلم عن الشبيحة والتشبيح قبل قيام الثورة ضد نظام الأسد في كتابه (حيونة الإنسان) – “إن التشبيح كلمة ممتلئة بالمعاني، فهي مزيج من الزعرنة والسلطة والتباكي، وهي مصطلحات سورية تعنى كل ما يقفز فوق القانون علينا.”.

ورغم تباين المصادر بشأن توقيت ظهور ما بات يعرف بالشبيحة ، إلا أن ثمانينيات القرن الماضي شهدت أزهى عصورهم، حيث كانوا عبارة عن مجموعات من شباب العلوبيين يعملون تحت قيادة مجموعة من المتنفذين من آل الأسد، وهم فواز وهارون ومحمد الأسد الملقب بشيخ الجبل، وتركزت أنشطتهم في التهريب والمخدرات والبلطجة .

و جاءت تسميتهم نسبة إلى سيارات الشبح السوداء التي كانوا يستخدمونها، وغالباً ما تكون بلا أرقام ، كما كانوا فوق القانون لأنهم حظوا بدعم حافظ الأسد ، ويستخدمون من القرداحة – مسقط رأس الأسد – مقراً لهم.

على أن هناك من يرى فرقاً بين المهرب والشبيح، فالمهرب يغامر ويختاطر وقد يصطدم بالدولة ، في حين أن الشبيحة يستخدمون سيارة الدولة ويهربون في عز النهار وفي شارع مزدحم يعرقلون المرور فيه.

ويتوسل الشبيحة القوة للاستيلاء على موارد مادية أو منافذ مجزية للدخل مثل الموانئ الخاصة، حيث تشير المصادر إلى أن رفعت الأسد كان له ميناء خاص في اللاذقية، لم يغلق إلا بعد تفجر الصراع بينه وبين أخيه الرئيس عام 1984، كما حل سرايا الصراع التي نفذت مجازر تدمير 1980 ومجازر حماه 1982.

ويتصف الشبيحة بالخشونة والقسوة والتبعية العميماء لرؤسائهم الذين يطلق عليهم لقب ”المعلم“ أو ”الحال“، وهم بذلك أقرب إلى منظمات المافيا، وهم معروفون من قبل أجهزة الحكم المركزية التي تخضع النظر عنهم، والأجهزة المحلية التي تتواءأ معهم وتتضمن لهم الحصانة بحكم قرابة رؤسائهم لأقوى رأس بالدولة، ولا تتجاسر حتى على الدفاع عن نفسها حين يحدث أي تضارب في المصالح.

حصانة تامة:

وفي ثمانينيات القرن الماضي كان الشبيحة المتمتعون بحصانة تامة يتصرفون بحرية مطلقة، حتى أنهم كانوا يقومون مثلا بإجبار زبائن مقهى على الابطاح تحت الطاولات، أو يقتلوا شاباً رفض إهانة من أحدهم، أو يتسللون التهديد للاستيلاء دونما مقابل أو بمقابل زهيد على أملاك اشتهوها لأنفسهم، أو يغتصب زعماءهم فتيات جميلات، أو يتولوا التحكيم بين شخصين مع نيل عمولة كبيرة ممن يفوز، وهو الأغنى طبعاً.

وكانت قوة الشبيحة إبان حكم الأسد الأب مستمدّة من أن مهمتهم الرئيسية هي التذكير الدائم بقوة وسطوة عائلة الأسد وأقرباؤهم من أمثال آل مخلوف (اللاذقية وريفها) وآل نجيب (جبلة وريفها).

إلا أن باسل الأسد اصطدم معهم بعد زيادة نفوذهم لدرجة مخيفة، وبدأ بتنفيذ حملة تطهير واسعة ضدهم وضد مفاهيم تواجههم التي لم تكن لتناسب المناخ العام لتوجه باسل الذي كان يجري إعداده لخلافة والده، خاصة وأن مفهوم الحاجة لإرضاء المقربين من العائلة قد بدأ بالتحول حيث أن الشخصيات ذات الثقل في كل من العائلة والحزب والسلطة كانت قد

بدأت بالتجارة وإنشاء الشركات والانفتاح على المجتمع.

ورأى باسل أن المناخ بات ملائماً للحد من مظاهر التشبيح والبلطجة في مقابل تقديم التسهيلات الحكومية التي بلغت حتى إلغاء كل القيود الحكومية والجمركية عن تجارة وأعمال العائلة والمقربين في مقابل الحصول على تنازلات منهم بالحد من مظاهر العصابات والتشبيح.

وكادت أن تنتهي ظاهرة الدراجات التي تجول شوارع (اللاذقية، وجبلة، وبانياس، وطرطوس)، والتي كانت سمة وشعار الشبيحة الأساسية لأنه لا يمكن لأي شخص عادي امتلاك دراجة ما لم يكن فرداً في عصابة أحد الشخصيات المتنفذة من العائلة.

وبعد وفاة حافظ الأسد عاد الشبيحة لممارسة دورهم السابق وتركهم بشار بعد أن تولى الحكم، مما أدى إلى ازدياد نفوذهم بشكل كبير، حتى لجأ إليهم في الأحداث الأخيرة حيث كانت مهمتهم القضاء على الثورة في المناطق السنية (بانياس، واللاذقية، وجبلة).

أتساع رقعة الشبيحة:

ومع دخول مستفيدين جدد من أعمال العنف التي تمارسها الدولة السورية ضد الثورة، اتسعت رقعة الشبيحة كثيراً في شهور الثورة السورية الأخيرة، وصار يطلق على الميليشيات غير النظامية التي يزجها النظام في مواجهة المحتجين في جميع مناطق البلاد ومع تعممه، انفصل عن مهده وروابطه الأصلية، إلا أن خصائصه المرتبطة بالعنف وجمع المال والولاء للنظام والطائفة ظلت كما هي.

وتشير بعض المصادر إلى أن عدد الشبيحة ربما يصل الآن إلى نحو 100، ويمولهم رجال أعمال لديهم علاقات واسعة بالنظام من السنة والعلويين على حد سواء، ومنهم رجل أعمال شهير سنى ويملك إحدى الفضائيات. وغالباً ما يرتبط الشبيحة بالعائلات الكبيرة في مناطقها مثل أسرة آل بري في حلب، وهي أسرة سنية من قبائل الجيس "القيس" كانت تدين بالولاء للنظام منذ زمن الأسد الأب، وكان لها دور في إخضاع حلب خلال ثمانينات القرن الماضي، ولذلك كافأها حافظ الأسد بأن أطلق يدها في حلب، وكانت تمارس سلطات واسعة على الشعب الحلبي ووصل عدد من أبنائها إلى البرلمان.

وكان هؤلاء يعملون في تجارة المخدرات ولديهم سجون ومعتقلات خاصة، ويفعلون ما يشاءون بالناس ويأخذون من التجار أموالاً مقابل ما يسمونه "الحماية"، وقد استمر هذا الحال لسنوات طويلة.

وأشارت بعض التقارير إلى أن لدى هؤلاء أكثر من 5 آلاف شبيح، ومؤخراً في الثورة استطاع آل بري أن يفرضوا مع قوات الأمن الرسمية السيطرة على حلب وإخافة الناس، وكان هذا سبباً في تأخر وصول المظاهرات السلمية إلى هناك أو أن الحلبين أدركوا أن المظاهرات ستتكلفهم الكثير مثل دير الزور وغيرها.

ومنذ بداية العام الحالي بدأت ملامح تحرير الريف الحلبي واضحة للعيان، وهذا الريف هو خزين من القبائل العربية والتركمانية التي لها صلات واسعة بتركيا بسبب القرب الجغرافي.

وعقب إتمام السيطرة لهم على الريف ولاسيما (عازار، وعندان، وحريتان، وبيانون) والسيطرة على معبر السلام وعبر باب الهوى المؤديان إلى تركيا، اندفعت القوات الثورية بقيادة أحرار حلب وبقية الفصائل وتمكنـت في شهر يولـيو الماضي من السيطرة على أكثر من 60% من حلب، ومنها منطقة "باب النيرب" القديمة.

و"باب النيرب" هي قلعة آل بري، حيث تمكـنـتـ الثوارـ منـ قـتـلـ عـدـدـ كـبـيرـ مـنـهـمـ،ـ كـمـاـ تـمـ إـعـدـامـ عـدـدـ مـنـهـمـ حيثـ بـثـتـ بـعـضـ الصـورـ عـلـىـ الـيوـتـيـوبـ،ـ وـمـنـهـ زـيـنـوـ الـبـرـىـ أـحـدـ كـبـارـ مـشـاـيخـهـمـ وـأـحـدـ أـهـمـ الدـاعـمـيـنـ لـلـشـبـيـحةـ.

الشبيحة في دمشق:

أما في العاصمة دمشق يتوزع الشبيحة في منطقة "مزة 86" وهي هي علوى أقامه النظام السوري للعلويين الذين جلبهم من الساحل قری (اللاذقية، وطرطوس، وجبله)، وجعله بمثابة "كانتون علوى"، وقام بتسليحهم مع بدء الثورة.

وكان مهتمهم القضاء على المظاهرات السلمية في دمشق أو الذهاب بهم إلى أبعد من دمشق مقابل المال، وكذلك "حي الورود" وهو حي عشوائي تقطنه غالبية من المتطوعين في قوى الأمن وبعض البلطجية وأولاد الشوارع، وحي "عش الوروار" و"جب الرز" وهي أحيا نشأت بخطف من النظام للسيطرة على العاصمة في حال إندلاع أي احتجاجات، وسكانها من العلويين وهم إما رجال أمن أو متعاقدين "مخبرين" أو أصحاب الأكشاك أو سائقي السيارات، وكلهم تحولوا إلى شبيحة لقمع المظاهرات سواء في دمشق أو درعا.

ومع وصول النفس الثوري إلى العاصمة دمشق، قام الشبيحة بأعمال مرعبة ربما يتم الكشف عنها خلال الفترة القادمة، حيث أنه نظراً لطبيعة عملهم والمهن التي يمتهنون بها مرتبطون بالشارع ويعرفون كل المداخل والمخارج ويعلمون أين يضربون، وكيف يكون الألم.

كما أن إطلاق يد كل من ينتمي إلى فرق الموت والرعب "الشبيحة" بدون حسيب أو رقيب، جعلهم يمارسون عمليات إجرامية بعيدة عن أعمال العنف المرتبطة بقمع الثورة.

وفي حمص، المدينة السنوية المسيحية ذات التاريخ، حيث يتواجد العلويون في القرى وتقع جنوب وغرب حمص، فالنظام السوري بدأ فيها بخطوة تغيير ديمografic منذ عهد الأسد الأب وأنشا فيها أربعة أحيا ذات غالبية علوية وهي (الزهرة، والنزة، وعكرم، ووادي الذهب)، وأقام فيها العلويون القادمون من القرى أو الساحل السوري حيث يقع جبل العلويين.

وأنشئت تلك الأحياء تحت ذريعة أن حمص وهي المنطقة الوسطى بسوريا توجد بها أغلب الكليات العسكرية، ولذلك فإن سكانها كانوا من الضباط ورجال الأمن أو تابعين للنظام.

يشار إلى أن الأحياء التي ثارت على النظام هي الأحياء الشرقية للمدينة، والتي تم تدميرها بشكل شبه كامل، وكانت تتصف من الأحياء الموالية التي لم تصب بأي أذى.

نوع جديد:

وقد ظهر نوع جديد من الشبيحة ليسوا من العلويين ولكنهم من فئة يطلق عليها "المتاولة"، وهم أحد أتباع الطائفة الشيعية، وكانوا من أصحاب المهن الهامشية ويعيشون على الصدقات، وهو ما سهل تجنيدهم لصالح النظام، حيث يرتكبون المجازر وخاصة عمليات الذبح بالسكاكين.

وفي حماه، وهي جزء من المنطقة الوسطى ومشكلتها أنها المحافظة الوحيدة التي ليس لها حدود خارجية مع دول جوار سوريا حيث أنها مغلقة تماماً، وسكان المدينة سنة يتوزعون بين ثلاث فئات (العرب، والتركمان، والأكراد)، وكلهم يتحدثون باللغة العربية بلهجات شامية.

والمحافظة محاطة بالمتناقضات، فجهتها مع حلب أو الرقة تقطنها قبائل عربية مثل "الحديديون"، ومنهم وزير الدفاع الحالى فهد جاسم الفريح رغم أن كل القبيلة ناشطون في الثورة، وأيضاً الشيخ أحمد الجرخ الحديدي وهو عضو مجلس القبائل العربية.

وتقى بها قبائل (عنيزه، وشمر، والعقيادات، والموالى) وغيرها، وهؤلاء بشكل عام يعملون مع الثورة، في حين أن الريف الذى يفصل بين حماه والساحل يقسم إلى ثلاث فئات هم المسيحيون ويقطنون على الحياد، حيث نصب النظام قطع المدفعية وقصف حماه من تلك القرى لخلق فتن طائفية، والعلويون والمراسيد وهم مع النظام، في حين أن الإسماعيليين وهم

يقطنون في منطقة السلامية التابعة لحماء وتفصلها عن الرقة كانوا من أوائل المنتفضين ضد النظام.

شبيحة الأسد:

أما القرى العلوية والمرشدية وهم شبيحة النظام ضد أبناء حماه لأسباب تاريخية، حيث كان يطلق على قسم كبير من أهالي مدينة حماه لقب "الأغوات"، وهو لقب عثماني للأثرياء وملوك الأراضي، وكان العمال والخدم عند الحمويين من أبناء الطائفة العلوية ويحملون حقداً تارياً لأبناء هذه المدينة.

وكان الأسد الأب قد ذكر في إحدى خطاباته قضية استغلال "الأغا" لبناء الطائفة وامتهان كرامة الرجال، وقد توج هذا الحقد في مذبحة حماه الكبرى في فبراير 1982، حيث تم تدمير ثلثي المدينة وأشهر أحياها الحاضر والسوق، فضلاً عن مقتل نحو 40 ألفاً وفقدان نحو 17 ألفاً إلى اليوم.

وفي الحراك الثوري الأخير استطاعت حماه دير الزور أن تخرجاً بأكبر مظاهرة سلمية في يونيو 2011، حيث بلغ عدد المتظاهرين في ساحة العاصي 600 ألف فاجتاحتها النظام في أول رمضان قبل الماضي.

أما الشبيحة في المنطقة الشرقية، والتي تشمل (دير الزور، والحسكة، والرقة)، وفي المنطقة الشمالية في إدلب والجنوبية في درعاً فلهم قصص أخرى.

المصادر: